حاضِرة الخِلافة

يقول أحد مؤرخى العرب: «إن قرطبة عروس الأندلس، بها من الجمال والزينة ما يبهر العين ويسـر النفس، فأمراؤها المتعاقبون تـاج مجدها، وقلادتها نظمت من درر استخرجها شـعراؤها من بحـر اللغة الخضم، وحلتها أعلام الآداب والعلوم، وأهداب حلتها أصحاب الفنون والصناعات».

وهكذا يصور المؤرخ الشرقى مدينته المحبوبة بما شاء من خيال الشرق البعيد.

ولقـد كانت قرطبة أيام الخليفـة العظيم حاضرة جديرة بالفخر والإعجاب، وإذا استثنينا بيزنطة فلن نجد فى أوربا مدينة تساميها فى جمال أبنيتها، أو فى حياتها الرخية المترفة، أو فيما تزخر به من أنواع العلوم وفنون الآداب.

إن الموجـز الذى نحن بصدد نقلـه عن مؤرخى العرب فى وصف قرطبة وما كانت فيه من نهضة وازدهار ومجد، إنما يعود زمنه إلى القرن العاشر، وإذا لحظنا أن أسلافنا السكسون فى هذا العهد كانوا يسكنون الأكواخ ويفترشون القصيل، وأن لغتنا لم تكن تكونت بعد، وأن القـراءة والكتابة كانتا محصورتين فى عدد قليل من الرهبان – عرفنا مـا كان للعرب من مدنية عجيبة، وحضارة منقطعة النظير.

وتظهـر المقابلة جلية غريبة بين حاضرة الأندلس وغيرها من المدن إذا ذكرنـا أن أوربا كلها فى هذا العهـد كانت غارقة فى حمأة من الجهل وخشـونة الأخلاق، وأنها لم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا مـا بقـى للإمبراطورية الرومانية من أطياف فى القسـطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا.

ويقـول مؤرخ عربى آخر: «إن قرطبة مدينة حصينة، تحيط بها أسـوار من الحجر ضخمة شـاهقة، وهى جميلة الشـوارع، وكانت فى الزمن القديم مقر سـلاطين الكفار، وكانت دورهم داخل سورها المحيط بها، ويشـتهر سـكانها بالرقة والظرف وكرم الخلق وحدة الذكاء، ولهم الذوق الكامل فى مآكلهم، وملابسهم، وانتقاء خيولهم، وإليهـا كانـت الرحلة فى رواية الشـعر، إذ كانـت مركز الكرماء وميدان العلماء والشـعراء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحابَ الكتائب، ولم تبرح سـاحتها مجر عوال ومجرى سـوابق، ومحط معـال وحمى حقائق، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزور من الأسد».

وهـذا المديح الشـرقى عرضة للمبالغة والإغـراق، ولكن قرطبة كانت جديرة بكل ما ينثر عليها من الإطراء والثناء، ولن تسـتطيع إذا رأيتهـا الآن، أن تـدرك ما كان لها من جمال رائع أيام الخليفة العظيم، فإن شـوارعها الضيقة، ودورها المبيضة بالجص، لا ترسم إلا صورة ضئيلة لما كان لها من العظمة واستبحار العمران، فقد تهدّم

«القصر» واتخذ الإسبان أطلاله بعد العز السامق سجنًا للمجرمين، ولا تزال القنطرة ماثلة فوق الوادى الكبير إلى اليوم، كما لا يزال المسجد الجامع الذى بناه أول الأمويين عجبًا من العجب، ومصدر دهشة للسائحين، ومن المحقق أنه كان أجمل روعة أيام عبد الرحمن الناصر أو بعدها بقليل، حينما زاد الوزير الأعظم (المنصور ابن أبى عامر) فى بنائه.

واختلف المؤرخون فى مقدار اتساع رقعة المدينة، والأرجح أن طولها لا يقل عن عشرة أميال، وكانت شواطئ الوادى الكبير متلألئة بالقصور المبنية بالرخام والمرمر، وبالمساجد والحدائق التى عنى فيها أشد عناية بالأزهار والأشجار النادرة المجلوبة من الممالك الأخرى، وأدخل العرب بالأندلس نظامهم فى الرى الذى لم يصل الإسبانيون إلى مثله من قبل ولا من بعد[1]، ونقل أول أمراء الأمويين نخلة من الشام لتذكره بموطنه، ونظم فيها قصيدة محزنة يندب فيها بعده عن أهله ودياره كما بعدت النخلة عن أهلها وديارها، وقد غرسها فى حديقة حاكى بها حديقة جده هشام بدمشق التى كانت ملعب

(١) يذكر البتانونى عناية العرب بالرى بمنطقة بلنسية فيقول: فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها، وأجروا خلجانها وسيروا إليها الماء من جبال نيفادا التى هى مقر الثلوج المستديمة، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه ووصولها إلى المنطقة العالية حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة.

لهوه فى أيام صباه، وأرسل رسلا فى كل بقاع الأرض ليجلبوا إليه أندر ما فى البلاد من الشجر والنبات والبذور، وكان بستانيوه غاية فى المهارة والذكاء، فنمت هذه الأنواع الغريبة واعتادت الإقليم وانتقلت من حديقة القصر إلى كل بلاد الأندلس، وعرف الرمان ونما وكثر بالأندلس بعد أن جاء فى هدية لعبد الرحمن الداخل من دمشق، فأخذت حبوبه واستنبتت بحديقته[1].

«وكانت هذه الحديقة تروى بأنابيب من الرصاص، تصب الماء منها تماثيل مختلفة الأشكال، من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة، والنحاس المموّه، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة، فترسله إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة والصهاريج الغريبة».

ويحدثنا المؤرخون بكثير من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن، وما كان بها من الأبواب الفاخرة، التى تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، أو التي يمر منها الأمير إلى المسجد الجامع، فى طريق فرشت بالبسط الثمينة ليؤدى صلاة الجمعة.

وكان بعض هذه القصور يسمى «بالزاهر»، وبعضها «بالمعشوق»،

---

(١) فى الحلل السندسية: لما صار معاوية بن صالح إلى عبد الرحمن أدخل إليه تحف أهل الشام، وكان فى هذه التحف رمان فجعل جلساء الأمير يذكرون الشام ويتأسفون عليها، وكان فيهم رجل يسمى سفرا فأخذ من ذلك الرمان شيئا لطف به وغرسه حتى علق وتم وأثمر، فهو اليوم بالأندلس الرمان السفرى نسبة إلى هذا الرجل.

وبعضها «بالمؤنس»، ورابع «بقصر التاج» وهكذا، في حين احتفظ قصر خامس باسم حاضرة الأمويين بالشرق وهو «دمشق»، وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه بالفسيفساء وبلغ غاية الروعة والجمال حتى ليقول فيه بعض الشعراء[1].

كل قصر بعد الدمشق يذم ... فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير ... وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي ... عنبر أشهب ومسك أحم

ولبعض بساتين قرطبة أسماء مغرية تدعو المرء إلى الاضطجاع بجانب جداولها المتدفقة، والتمتع بشذى أزهارها وأثمارها: «فمنية الناعورة» توحي إليك بإحساس نحو الراحة والنعيم، منصتًا إلى صوت الماء وهو ينصب من الساقية إلى حياض البستان، «مرج الخز» كان بلا شك بستانًا ساحر المنظر لأهل قرطبة، بأزهاره المختلفة الألوان. وكان جريان الوادي الكبير مصدر بهجة وسرور لهم، لأن الشرقيين لا يحبون شيئًا في الدنيا، أكثر من أن يروا منظرًا يسمعون فيه تمتمة الأنهار. وعرب إسبانيا شرقيون في كل شيء إلا في موقعهم الجغرافي.

وقد امتد بين شاطئ النهر جسر فخم به سبع عشرة قنطرة، وهو لا يزال ماثلا إلى اليوم يشهد بمهارة العرب في علوم الهندسة،

(١) هو ابن عمار.

وكانـــت المدينة مزدحمة بالدور الفخمة، قيل إنه كان بها أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعمائة مسجد، وتسعمائة حمام.

وللحمامات شـأن كبير فـي المدن الإسـلامية، لأن النظافة عند المسـلمين ليسـت من الإيمان فحسـب، بـل هي شـرط لازم لأداء الصلوات والعبادات عامة، ذلك في حين أن كان مسـيحيو العصور الوسـطى ينهون عن النظافـة ويعدونها من عمـل الوثنيين، وكان الرهبـان والراهبات يفخـرون بقذارتهم، حتـى إن راهبة دونت ببعض مذكراتها في صلف وعجب: أنها إلى سـن السـتين لم يمس الماء منها إلا أناملها، عندما كانت تغمسها في ماء الكنيسة المقدس. نقـول: بينما كانت القذارة من مميزات القداسـة، كان المسـلمون شديدي الحرص على النظافة، لا يجرؤون أن يقفوا لعبادة ربهم إلا إذا كانوا متطهرين، وحينما عادت إسـبانيا إلى الحكم المسيحي أمر فيليب الثاني زوج ماري ملكة إنجلترا بهدم كل الحمامات العامة، لأنها من آثار المسلمين!

وكان لا يـزال للمسـجد الجامع المنزلة الأولى بـين مباني قرطبة الضخمـة الجميلة، فقد أنشـأه عبـد الرحمن الداخل في سـنة ٧٨٤ م / ١٦٨ هـــ وأنفـق في بنائـه ثمانين ألف دينـار، حصل عليها من غنائم القوط، ثم أتم هذا المسـجد ابنه التقي هشـام في سنة ٧٩٣ م / ١٧٧ هـــ بما اغتنمه من حـروب أربونة، وكان كل أمير بعده يضيف

جمــالا جديدًا إلى هذا المســجد الذى يعد أبدع مثــال فى العالم للفن الإســلامى فى أول عهوده. فمن الأمراء من صفّح السوارى والحيطان بالذهب، ومنهم من أضــاف إليه مئذنة، ومنهم من زاد فى رقعته ليتسع للعدد الضخم من المصلين، وكان عدد بواكيه[1] تسع عشرة من الشــرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشــمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون بابًا طليت بالنحاس الأصفر اللماع، وثلاث وتسعون ومائتان وألف ســارية، وقد أجريت الفضــة[2] فى حيطان محرابه المزين بالفسيفســاء، وصب فى ســواريه الذهب الإبريز واللازورد. أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشــب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة، رصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمســامير من الذهب، وكان يصل المــاء من الجبال إلى الينابيع التى أعدت لوضــوء المصلين، وكانت هــذه الينابيع تقــذف بمائها ليلا ونهــارًا، وبنيت دور إلى الجانب الغربى من المســجد لنزول فقراء المســافرين وأبناء السبيل، وبالمسجد مئات من الثريات التى صنعت مــن نحاس أجراس الكنائس للإضاءة ليــلا، وكان به شموع ضخمة زنة الواحدة منها خمســون رطلا، كانت تشــتعل ليــلا ونهارًا إلى

(١) كانوا يسمون الباكية بالبلاطة.

(٢) فى المقرى: الذهب.

جانبى الخطيب أو الواعظ فى شهر رمضان، وكان بالمسجد ثلاثمائة خادم لإيقاد البخور من العنبر والعود، ولإعداد الزيت العطر لإضاءة عشـرة آلاف فتيل للقناديل، وقد بقى كثير من جمال هذا المسـجد ماثلا إلى الآن، فإن السـائحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغابة من السـوارى، فيروعهم فيها منظر لا يكاد ينتهى من كل جانب، ولا تزال سـوارى الصـوان اللامع والرخام المجـزع فى مواضعها، ولا يزال الزجاج الفاخر الذى اسـتحضره صناع ماهرون من بيزنطة يلمع لمعان الجواهر، ولا يزال المحراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشـجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تسـاير امتداد السـوارى، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسـجد وجماله، عـادت به الذكـرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارهـا، أيام الخليفة العظيم التى لن تعود.

وأشـد بعدًا فى باب الغرابـة مدينة الزهراء - وإن لم تكن أكثر من المسـجد حسـنًا - بناها عبـد الرحمن الناصر فـى أحد أرباض قرطبـة لأن إحدى زوجاته - وقد كان مشـغوفًا بها - تمنت عليه أن يبنى لهـا مدينة باسمها. وكان الخليفة العظيم كغيره من ملوك المسـلمين مولعًا بالبناء والتجديد فأجاب طلبتها، وأنشأ مدينة فى سـفح الجبل المسـمى بجبل العروس على بضعة أميال من قرطبة[1]

---

(١) بدئ فى بنائها سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م.

كان ينفق عليها كل سـنة ثلث دخل المملكة[1] مدة خمس وعشـرين سـنة، ثم اسـتمر ابنه من بعده في الإنفاق عليها مدة عشر سنين، وكان عدد العمال فى كل يوم عشرة آلاف، وكان جملة ما يبنى منها فى كل يوم من الصخر المنجور المعدل ستة آلاف صخرة، ويعمل فى عمارتها فى كل يوم نحو ثلاثة آلاف دابة، وأقيم بها من السوارى أربعة آلاف كان كثير منها هدية من إمبراطور القسـطنطينية[2] أو من رومة، أو قرطاجنة، أو سـفاقس، أو غيرها، إلى جانب ما كان يؤخذ من مقاطع طركونة والمرية.

وكان بالزهراء خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه، وكان سـقف بهـو الخليفة بالزهراء وحيطانـه من الرخام والذهـب وبفوارته تمثال عجيب أهداه إليه ملك الروم، وبعث إليه معه بدرة نادرة، وفى وسـط البهو حـوض ملئ بالزئبق الرجراج، إلى كل جانـب منه ثمانيـة أبواب من العـاج والآبنوس قد رصعت بالجواهر، فإذا دخلت أشـعة الشـمس من هـذه الأبواب، ولاقت اهتزاز الزئبق، ملأت البهو ببريق يشـبه لمعان البروق، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدته[3].

(١) كان دخل المملكة فى عهد الناصرعشرين مليونًا من الدنانير.

(٢) فى نفح الطيب، أن ملك الروم أهدى إليه مائة وأربعين سارية.

(٣) قال ابن حيان: وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحدًا من أهل مجلسـه أومأ إلى أحـد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب، حتى يخيل لكل من فى المجلس أن المحل قد طار بهم.

ويجـد مؤلفو العرب متعة في التحدث بعجائب الزهراء فيقول بعضهـم: «لقد يمتد بنا الحديـث إذا اقتصرنا على عد ما بالزهراء مـن جمال وفن: فهنـاك الجـداول الدافقة، والأمـواه المتعرجة، والبساتين الزاهرة، والقصور الفخمة لسكنى رجال الدولة، وهناك صفـوف الجند والخـدم والعبيد من كل بلد وملـة وهم في ملابس الحرير بين إقبال وإدبار في شـوارعها الفسيحة، ثم هناك ازدحام القضاة والفقهاء والشـعراء وهم يمشـون في وقار ورهبة في أبهاء القصر الفخمة وأفنيته الكثيرة».

وقد قدر عدد الفتيان من خدم القصر بخمسـين وسبعمائة وثلاثة عشـر ألفًا، يصرف لهم في كل يوم من اللحم نحو ثلاثة عشر ألف رطل، حاشـا أنواع الطير والحوت، وقدر عدد نسـاء القصر من كل جنس وطبقة بما في ذلك نسـاء الخليفة ووصيفاتهن، بأربع عشرة وثلاثمائة وستة آلاف، وكان بالقصر من الخدم الصقالبة والخصيان خمسـون وثلاثمائة وثلاثة آلاف، خصص بهم من اللحم أو الدجاج أو الطيور ثلاثة عشـر ألف رطل، فمنهم من كان يصرف له عشـرة أرطال، ومنهم من كان يصرف له أقل من ذلك على حسب منازلهم، وكان يقذف لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف رغيف في اليوم، غير ستة أقفزة من الحمص الأسود تنقع لها في كل يوم.

وعجائـب هـذا القصر دونت بإسـهاب في كتـب مؤرخي هذا العهد، وخطب بها الخطباء ونظمها الشعراء الذين استنفدوا كنوز

البلاغة في أوصافهم «وقد أطبق كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبنَ مثله، في الإسلام ألبتة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة، من ملك وارد، أو رسول وافد، أو تاجر، أو جهبذ – وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة – إلا وكلهم قطع أنه لم ير له شبيهًا، بل لم يسمع، بل لم يكن يتوهم كون مثله، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب، والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الأثاث والفرش والسجف ما بين مرمر مسنون وذهب مصون، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهام إلى استقصاء التعبير عنها – لكفاه بعض ذلك شرفًا ونبلا. فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف على إبداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة لكي يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لأهل السعادة في دار المقامة التي لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج إلى الرمّ، لا إله إلا هو المنفرد بالكرم».

وقد استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكة نافار وسانشو (شانجة) في حفل عظيم، وبه جلس ليحيي رسل ملك الروم الذين بعثهم إلى حضرته، وقعد للقائهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م في بهو المجلس الزاهر – قعودًا حسنًا

نبيلًا، وكان قد أمر كبار رجال الدولة وقواد الجيوش أن يعدوا لهذه المقابلة خير إعداد وأفخمه، وكان البهو فى أكمل زينة، والعرش فى وسطه يلمع ذهبه، وتتلألأ نفائس جواهره، ووقف إلى يساره أبناؤه، فالوزراء على مراتبهم يمينًا وشمالا، ثم الحجاب من أهل الخدمة، وأبناء الوزراء والموالى ورجال خاصة القصر وغيرهم.

وقد فرش صحن الدار بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين من بهجة الملك وفخامة السلطان، ثم تقدموا خطوات وقدموا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى، قسطنطين بن ليون، وهو فى ورق سماوى اللون كتب بالذهب بالخط الإغريقى.

ولما احتفل الناصرلدين الله هذا الاحتفال، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه وولى عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، وقام خطيب وأخذ يحاول التكلم فهاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد إلى لفظة، وغشى عليه وسقط إلى الأرض. ثم قام آخر فحمد الله وأثنى عليه ثم انقطع به القول فوقف ساكتًا مبهوتًا(١).

---

(١) يؤخذ من ابن خلدون أن المأمور بالكلام أولا هو أبو على القالى، فلما أرتج عليه قام منذر بن سعيد فارتجل خطابًا ضافيًا.

وقد بذل الخليفة جهده في بناء الزهراء وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، وانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث مرات متواليات، وحينما ذهب إلى المسجد بعد ذلك أنذره الخطيب بالعذاب الأليم في نار الجحيم لتعطيل الجمع[1].

ورونق قصور قرطبة وبساتينها - مع استهوائه القلوب - يغرينا بجمال آخر لا يقل عن رونقها الظاهر. فقد كانت عقول أهل قرطبة كقصورها في الحسن والروعة، فإن علماءها وأساتذتها جعلوا منها مركزًا للثقافة الأوربية، فكان الطلبة يفدون إليها من جميع أنحاء أوربا ليتلقوا العلم عن جهابذتها الأعلام، حتى إن الراهبة «هروسويذا» وهي بعيدة في ديرها السكسوني بجودرشيم - حينما أخبرت بشنق يولوجيوس لم تستطع إلا أن تثني على قرطبة وتسميها «ألمع مفخرة للدنيا». وكان يدرس بقرطبة كل فرع للعلوم البحتة، ونال الطب بكشف أطباء الأندلس وجراحيها من النمو والازدهار نصيبًا أعظم مما ناله قبلهم منذ أيام جالينوس. وكان أبو الطيب خلف جرّاحًا ذائع الصيت في القرن الحادي عشر، وبعض عملياته الجراحية يطابق اليوم العمليات الحديثة. وجاء

(١) يروى أن منذر بن سعيد بدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ (الآيات) ثم وصل ذلك بقوله: فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى، وهي دار القرار ومكان الجزاء.

ابن زُهر[1] بعده بقليل، فكشف عن أساليب كثيرة في العلاج والجراحة، أما ابن البيطار[2] العالم النباتي، فإنه سافر إلى كل بقاع الشرق للبحث عن العقاقير الطبية، وألف في ذلك كتابًا جامعًا. وكان الفيلسوف ابن رشد[3] الحلقة الأولى في السلسلة التي وصلت فلسفة قدامى اليونان بفلسفة أوربا في العصور الوسطى، وكانت علوم الفلك، والجغرافيا، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، تدرس بمثابرة وجد بقرطبة، أما الأدب العربي فإن أوربا لم تر في عهد

(١) هي أسرة اشتهرت بالبراعة في الطب والأدب، أولها أبو مروان بن زهر، نال حظوة كبيرة عند مجاهد ملك دانية فطار ذكره بالأندلس، ثم ابنه أبو العلاء بن زهر، كانت له منزلة سامية في عهد المرابطين، ثم عبد الملك ابنه، اشتهر بالطب في عهد الموحدين، ثم ابنه الحفيد أبو بكر كان طبيبًا أديبًا، ثم ابنه عبد الله.

(٢) هو أبو عبد الله المالقي النباتي، سافر إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه، واجتمع أيضًا في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات، وكان لا يذكر دواء إلا عين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس، وجعله الكامل بن أيوب رئيسًا على العشابين بدمشق، ثم خدم الملك الصالح أيوب بمصر، ومات فجأة سنة ٦٤٦ هـ.

(٣) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ واتصل بيعقوب بن عبد المؤمن، وبرع في الفقه والطب والفلسفة، وتولى قضاء إشبيلية واستمر بها خمسًا وعشرين سنة، وكان الطبيب الخاص لأبي يعقوب يوسف ثم لولده المنصور، واتهمه بعض خصومه بالزندقة فنفي من المغرب إلى قرطبة، ثم دعي ثانية إلى مراكش، وأعظم آثار ابن رشد شرحه لفلسفة أرسطو، مات سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٥ م.

من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت فى الأندلس حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر، ويظن أن هذا الشعر هو الذى أوحى للشعراء المغنين بإسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيهم، وهو الذى حاكاه شعراء «بروفانس» و «إيطاليا».

ولم تكن تعد الخطبة أو الرسالة كاملة إلا إذا تضمنت أبياتًا ترتجل أو تختار من مأثور الشعر الرصين، ويظهر أن العالم الإسلامى اتجه بروحانيته إلى آلهة الفنون، فمن الخليفة فى عرشه إلى النوتى فى سفينته، كنت تسمع النظم الفائق فى مشاهد الأندلس وجمال مدنها، ثم فى روعة خرير الأنهار وسحر الليل الساجى وقد هدأت فيه النجوم، ثم فى نشوة الحب والخمر ومجتمع الأنس وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التى ترمى بقوس حاجبها القلوب[1].

وقد بلغت الأندلس الغاية فى الفنون فبناء مدينة كالزهراء أو مسجد كالمسجد الجامع، ما كان ليتم على هذا الوضع الرائع إلا إذا بلغ العمال قمة المهارة فى صناعاتهم، وكانت صناعة الحرير من الصناعات الممتازة بالأندلس، فقد قيل إن عدد النساجين بلغ فى قرطبة وحدها مائة وثلاثين ألفًا.

---

(١) يظهر أن الشعر كان طبيعة فى أهل الأندلس. قال ياقوت فى الكلام على شلب: وسمعت ممن لا أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا أو يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه فى أى معنى طلبت منه.

واشتهرت المرية بمنسوجاتها الحريرية وبسطها، ووصلت الفخارة فى الإتقان حدًّا عجيبًا، فقد انتهى الفن بالصناع بجزيرة ميورقة إلى أن أبرزوا أوانى فخارية تلمع ببريق معدنى، ومنها استعارت إيطاليا اسم أوانيها التى دعتها بالميورقية، وكانت تصنع الأوانى النحاسية والحديدية والزجاجية المزججة والمذهبة بالمرية، ولا يزال لدينا بعض نماذج من العاج المحفور وقد كتب عليها أسماء عظماء قرطبة.

نعم إن هذه الفنون نقلت من الشرق بغير شك، ولكن صناع الأندلس كانوا تلاميذ نجباء لأساتذتهم من البيزنطيين، والفرس، والمصريين، فوصلوا إلى درجة النبوغ فى صناعة الحلى، وبقى من ذلك إلى اليوم أثر عجيب من آثار ابن الخليفة العظيم، لا يزال يحفظه الإسبان فوق المذبح الأعلى لكنيسة قرطبة، وهو علبة ملبسة بالفضة، مرصعة بالدر، وقد كتب عليها بالعربية دعاء وتمجيد لأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، وهو دعاء يعد غريبًا فوق مذبح للمسيحية.

وكانت الحلى ومقابض السيوف دقيقة الصنع بارعة الفن، كما يدل على ذلك سيف الأمير أبى عبد الله آخر أمراء غرناطة، واشتهر المسلمون دائمًا بصناعة المعادن حتى إن بعض الأشياء التافهة كالمفاتيح، كانت جميلة الصنعة فائقة الحلية، والثريا البديعة التى صنعت لمسجد أمير غرناطة محمد الثالث والتى لا تزال ماثلة بمجريط (مدريد) خير مثال لتفوق العرب في نقش البرنز وإتقان زخارفه.

ووصلت الأندلس إلى منزلة فى صناعة المخرمات لم تصلها إلا دمشق والقاهرة، ولا نزال نقرأ فى كثير من أمكنة غرناطة تلك

العبارة: «لا غالب إلا الله» وهى شعار أمرائها، وقد سبق أن تحدثنا عن الأبواب النحاسية بقصور قرطبة، وبعض هذه لا يزال باقيًا إلى اليوم بكنائس إسبانيا.

وطالما سمع الناس عن سيوف طليطلة، ومهارة أهلها فى صناعة الصلب، وهذه الصناعة - وإن كانت فى إسبانيا قبل الفتح الإسلامى - زادت تقدمًا فى أيام الخلفاء والأمراء بقرطبة، واشتهرت المرية، وإشبيلية، ومرسية، وغرناطة بصنع الدروع وآلات الحرب.

وجاء بوصية الدون بدرو: «وأوصى أيضًا لابنى بسيفى القشتالى الذى صنع بإشبيلية، ورصع مقبضه بالذهب ونفيس الجوهر».

وقصارى القول إن قرطبة كانت بحق «مفخرة للدنيا»، فى الفنون والعلوم وأسباب المدنية جمعاء.